

نهاية فلسطين؟

حُكْمُ التَّارِيخِ*

ترجمة: سماح ادريس وأيمن حتا حداد

لأنَّ ما يحدِّد ما إذا كان «غزوٌ ما مُفَعَمًا بالشَّرُّ أو بالخير للجنس البشريِّ إنَّما هو القيمةُ المقارنة comparative worth للشعوب الغازية والمغزوة». وفي حالة أميركا الشمالية، أعلن المستعمرون، و«بحق»، أنَّ القارة «إرثٌ لهم» و«قاتلوا بالنيابة عن مصير العرِّق بمجمله» حين احتلوها. لقد كان «مقدراً لهذه القارة أن تكون إرثاً لأبنائهم ولأبنائِ أبنائهم»؛ ذلك أنَّه من الأهمية القصوى بمكان - «لمصلحة الجنس البشريِّ» و«لمصلحة الحضارة» - أن ينال أميركا الشمالية «شعبٌ بارعٌ مُتَّفَقٌ»[كذا].

لقد أمن روزفلت أنَّ «خيرَ العالم يقضي بأن يسيطر العرِّقُ النَّاطِقُ بالإنكليزية - وبكل فروعها - على أكبر مساحة ممكنة من سطح العالم». وأقرُّ أنَّ ذلك يعني «إنزال البلاء والمعاناة والويل والتعاسة [بالشعوب الأخرى]؛ غير أنَّ هذا هو ثمن التقدم: «كانَ من المرجح ألا يسيِّر العالمُ قُدماً على الإطلاق، لو لم تُزحَّ الشعوبُ البربريةُ والمتوحَّشةُ أو تُخضعُ» نتيجةً للاستيطانِ المسلَّحِ الذي قامت به في أراضٍ غربيةٍ شعوبٌ تمسكُ بأيديها مصيرَ الرِّمانِ».

بل الحقُّ أنَّ «الأمَّ النَّزَعُ» التي أطلقها «العرِّقُ الأدنى» قد كانت «في النهاية هي هي الأم المخاض لولادة شعب جديد وحيوي». وتبعاً لهذا المخطَّط العظيم للأشياء، لم تُرتكَبْ أيُّ جريمةٍ ضدَّ سكان أميركا الشمالية الأصليين[!] «فالحقُّ أنَّ العدالة قد كانت إلى جانب المستوطنين والرَّائدِ، إذ لم يكن ممكناً أن تُبقى [أميركا الشمالية] مجردُ منطقةٍ مخصَّصةٍ للصُّيدِ يَمْلِكها متوحَّشون قَنزرونٌ جديرونٌ بالازدراء!» وقد كان روزفلت واضحاً وصريحاً بخصوص ما ينطوي عليه هذا المبدأ من مضامينٍ إباديةٍ [للسكان الأصليين بأسرهم] حين قال: «إنَّ أكثر الحروب المبرِّرة أخلاقياً هي - في نهاية المطاف - الحربُ ضد المتوحَّشين، وإنَّ كانت أيضاً عُرضةً

يلاحظ نعوم تشومسكي أنَّ من بين الخصائص اللافتة لـ«هيجان الستينات» [في الولايات المتحدة في هذا القرن] هو أنَّه رَفَع الوعي «الثقافي والأخلاقي» للكثير من مواطني الولايات المتحدة. ولعلَّ المثال الأسطع على ذلك هو الإدراك الحالي لواقعة الغزو الأوروبي للأميركيتين. ذلك أنَّ قلةً قليلةً فحسب - وهو ما يُناقض بوضوح الماضي القريب نفسه - ستجد في ذلك الفصل المكتوب من تاريخ العالم عدلاً، دُع عنك أنَّها لن تجد فيه شهامةً أو نبلاً. ويمكن المرء أن يتوقَّع أن يندم الإسرائيليون ذات يوم، هم الآخرون، على ما ارتكَب بحق السكان الأصليين لفلسطين. والواقع أنَّ عملية الاحتلال، وتبريرات هذا الاحتلال أيضاً، متشابهةٌ تشابهاً مذهلاً في الحالين.

يمجدُّ ثيودور روزفلت، في كتابه السُّرديِّ النَّصبيِّ: «انتصارُ الغرب The Winning of the West»، انتشارَ الشعوبِ الناطقةِ بالإنكليزية فوق بقاع العالم المبددةِ اليبابِ بوصفه «الملح الأبرز في تاريخ العالم» و«الأبعد أثراً وأهميةً». ويقول إنَّه لم تكن ثمة «أيُّ حقبةٍ من التوسُّع العرِّقي» بمثل «تلك السُّعة أو السُّرعة» - ولا بمثل تلك [الدُّرجة الفائقة من] «العدالة» كما كان سيبدو [لروزفلت وأمثاله]. كانت الأرضُ بَكرًا، ولم يكن للسكان الأصليين أيُّ مطالب قانونيةٍ جوهريةٍ بها. فلقد «انتقل» المستوطنون البيضُ «إلى قفار غير مسكونة... لم تكن الأرضُ في الواقع ملكاً لأحد... ولم يُطرد المستوطنون منها أحداً. بل الحقُّ أنَّ الهنود لم يكونوا يمتلكون أيُّ حقٍّ شرعيٍّ فعليٍّ في هذه الأرض».

ومع ذلك، فإنَّ عجلةَ التقدُّم - لا العدالة - هي التي كانت تبدو كأضخم ما يكون في تأويل روزفلت. وبصورة أدق، كان التقدم عنده هو المعيار الحقيقي للعدالة. فالفقُولُ بأنَّ «كلُّ حروبِ الفتح شرٌّ بالضرورة» ينمُّ عن «رؤيةٍ قصيرة النظر»،

* - الصفحات الأخيرة من الفصل الأخير من كتاب فينكلستين: صعود فلسطين وأفولها - رواية شخصية لسنوات الانتفاضة، منشورات جامعة مينيسوتا، ١٩٩٦. وتعتذر الآداب عن عدم نشر هوامش هذا البحث لشدة طولها (إذ تشكل ثلاثة أرباعه) رغم أهميتها الوثائقية البالغة.

** - displacement تعني: الإزاحة، ولكنها تعني أيضاً العزَل والتنحية. وأما submersion فتعني الإخضاع لكنها في الأصل تعني الإغراق [تحت الماء] والحجَبَ والطمسَ. (الترجم)

لأن تكون أكثرها رعباً ولا إنسانيةً. إنَّ المستوطنينَ الفظَّ والشُّرسَ الذي يطرد المتوحَّشينَ من الأرض يجعل كلَّ رجلٍ متحضراً مبدئاً له». وليس أيُّ ادعاءٍ معاكسٍ، بحسب روزفلت، إلاَّ أثره لا طائلَ تحتها:

إنَّها لأخلاقياتٌ مُتوتيةٌ وفاسدةٌ وسخيفةٌ تلك التي تحرَّم مسارَ فتح قلب قاراتٍ كاملةٍ إلى قواعدٍ لأممٍ قويةٍ ومزدهرةٍ ومتحضرةٍ. وعلى كلِّ الرِّجالِ ذوي الفكر السليم والحكيم ان يُتَبذوا - وياحتقارِ نافذ الصُّبر - الدُّعوى التي تقول بأنَّ على هذه القارات ان تُحفظَ لفائدةِ قبائلٍ متوحَّشةٍ مشتتةٍ لم تكن حياتها إلاَّ بدرجاتٍ فحسبٍ أقلَّ معنىً وتشتتاً وتوحُّشاً من حياة الوحوش البريَّة التي تشترك وإياها [والمقصود: تلك «القبائل»] في ملكيةٍ واحدة.

وبالمجمل، «فإنَّ نحن فشلنا في التصرف تبعاً لنظرية الشعب المتفوق... سادت البربريةُ والوحشيةُ والعراقيلُ الحقيرةُ أغلبُ الكرة الأرضية».

ولقد كان تبريرُ ونستون تشرشل* للغزو اليهودي لفلسطين بمثابة ترجيحٍ لحجج روزفلت. فبعد أن قارن تشرشل بين الفلسطينيِّ العربيِّ و«كلبٍ في مغلَّف، أكَّد ما يلي:

انا لا أوافق على أنَّ الكلب في المغلَّف يملك الحقَّ النَّهائيَّ في هذا المغلَّف، حتى لو كان قد اضطلع فيه وقتاً طويلاً جداً. انا لا أقرُّ بذلك الحق. انا لا أقرُّ، مثلاً، بأنَّ ظلماً كبيراً قد ارتكبَ بحقِّ الهنود الحمر في أميركا، أو بحقِّ السُّود في أستراليا. انا لا أقرُّ بأنَّ ظلماً كبيراً قد ارتكبَ بحقِّ هذه الشعوب؛ ذلك لأنَّ عِرْقاً أقوى، عِرْقاً من درجةٍ أعلى، عِرْقاً - هو على أيِّ حالٍ، ولتصِفُه بالوصف التالي - أكثرَ خبرةً بالعالم، قد جاء وحلَّ مكانها.

لقد كانت المنيَّةُ [الإلهيةُ] الأكثرُ شفاعةً، بحسب روزفلت، هي أنَّ الغزو الذي قامت به الولاياتُ المتحدةُ كان - بالطبع - أرحمَ غزوٍ على الإطلاق: «فليس ثمةُ أمةٌ غاربيةٌ أو مُستعمرةٌ عاملت مالكي الأرض المتوحشين بمثل السُّمَّاحةِ التي عاملتُ بها الولاياتُ المتحدةُ [الهنودُ الأصليين]». ولقد كان مصيرُ الهنود التشيروكيين** نموذجاً على «سماحة» حكومة الولايات المتحدة. والواقع أنَّ عمليةَ إزاحة التشيروكيين تجسَّد - بقسماتها الرئيسية - الخصائص الأساسية لمصير كثيرٍ من الشعوب التي تعرَّضتْ للاحتلال، ومن ضمنها الشُّعْبُ الفلسطينيُّ. ولهذا السبب سيقدمُ تفحصٌ مفصَّلٌ لمصير الأمة التشيروكية، بعلاقتها بالمستوطنين المتاخمين وبحكومة الولايات المتحدة، مثلاً موازياً لمصير الفلسطينيين في صراعهم مع المستوطنين اليهود وإسرائيل. وبالرغم من أنَّ

العمليتين متباعدتان جداً من حيث الزمانُ والمكانُ والحضارةُ [أو الثقافة]، فإنَّ هناك أوجهَ شبهٍ مُذهلةً بينهما من حيث خطابُ النظامين الغازيين كليهما وتكتيكاتهما وتبريرَاتهما القانونيةُ واستخدامهما للعنف.

لقد بلغ تعدادُ الشعب التشيروكي عشيةَ الغزو الأوروبي، ربَّما، حوالي ثلاثين ألفاً، وكانوا يسيطرون على حوالي مئةٍ وأربعةٍ وعشرين ألف ميلٍ مربع. غير أنَّ عددهم في بداية القرن التاسع عشر تضاعل إلى ما يقل عن ثلاثة عشر ألفاً، وتقلَّصتُ مناطقُ سيطرتهم إلى ما لا يزيد عن سبعةٍ عشر ألف ميلٍ مربع. وفي القرن التالي جُرِّد التشيروكيون من كلِّ أملاكهم تقريباً، ولم يصل تعدادهم إلى ما كان عليه قبل الغزو.

كان التشيروكيون قد أقاموا أوَّل اتِّصالٍ بمستعمرةٍ [مستوطنة] إنكليزيةٍ في منتصف القرن السابع عشر. وكانت مستعمرةُ فيرجينيا قد أنهت مؤخراً نزاعاً طويلاً ومميتاً مع شعبِ البوهاتان Powhatans، وهو نزاع استَبَقَ مصيرَ التشيروكيين. وليس من التمثُّل أن نجد في حرب الإنجليز - البوهاتان الثانية نموذجاً مبكراً عن الحرب الإسرائيلية - العربية عام ١٩٤٨. فقد أعلنت مستعمرةُ فيرجينيا الحرب، متخذةً من هجوم هنديٍّ ذريع، و«انتهجت بعد ذلك سياسةً كانت قد تمَّت دائماً أن تنتهجها، وهي سياسةُ مصادرةِ الأراضي مصادرةً تامَّةً وترحيلِ السكَّانِ ترحيلاً تاماً» بحسب كلمات كيركباتريك سايل. ويتذكَّر أحدُ المستوطنين ما يلي:

نحن، الذين لم نكن حتى الآن نمتلك من الأرض بأكثر ممَّا يمتلكون من اليباب... قد يكون لنا - بحقِّ الحرب وقانون الأمم - أن نغزو البلاد وندمر أولئك الذين يسعون إلى تدميرنا. وبهذا نتمتع بأماكنهم المزروعة... ونمتلك نتاجَ عمل الآخرين. إنَّ اراضيهم المُزرَّعة في كلِّ قراهم (والتي تقعُ في أخصب الاماكن من الأرض) سوف نَسْكُنُها نحنُ.

وانتهج المستعمرون الإنكليزُ الأوائلُ (بعكس الفرنسيين والإسبان) سياسةَ النموِّ المنفصلِ separate development، وذلك تحاشياً للذويان في السكَّان الأصليين. وبالرغم من الخطاب الرسمي تابع الأميركيين الأسلوب الأساسي ذاته قبل الثورة وبعدها. وكتب رونالد ساتز أنَّ «كُلَّ رئيس أمريكي منذ تشكيل الحكومة قد فكَّرَ جدياً في نقل الهنود transfer إلى مناطق خارج الحدود الجغرافية للولايات المتحدة»؛ وتخيل جورج واشنطن «سوراً صينياً» يفصل البيض عن الهنود.

* - رئيس وزراء بريطانيا بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥، ثم بين ١٩٥١ و ١٩٥٥. (الترجم)
** - شعبٌ هنديٌّ أميركيٌّ، من «تنيسي» وكارولينا الشمالية في الأصل. (الترجم)

في العام ١٧٢١، أُجبر التشيروكيون - من خلال معاهدة مع مستعمرة كارولينا الجنوبية - على التخلي عن أراضٍ لهم للمرة الأولى في حياتهم. وما كُتب في هذه المعاهدة وفي كل المواثيق المتتالية قد كان تنويعاتٍ على الفكرة الرئيسية عَيْنها: فكرة «سلام دائم من الآن فصاعداً» بين الولايات المتحدة والأمة التشيروكية. وقد علّق الزعيم التشيروكي ريتشارد ماك بتيس Bettis بسخرية ومرارة قائلاً: «إن كل عبارة عن الصداقة لتتبع بوصفٍ لما تأخذه الحكومة من القبيلة». ويلخص جايمس موني Mooney حقيقة ما قبل الثورة، فيكتب: «أن المد الذي تشهده هجرة البيض يشتد ويتجاوز الجبال بالرغم من كل الجهود لكبحه»، وأن هذه الحقيقة... تتميز قبل كل شيء بعدد المعاهدات التي تخلى فيها الهنود عن أراضيهم؛ وقد كانت كلها تُسمى - دون جدوى - إلى وضع حاجزٍ دائم بين الهنود وبين الموجة المتقدمة من الاستيطان الأبيض».

غير أن التركيز الحصري على الانتهاكات التي تعرضت لها هذه المعاهدات يُضيّع النصف الأخر من القصة. ذلك أن المعاهدات نفسها كانت - بل كان يجب أن تكون - نتيجة للإكراه. يلاحظ ساتز في هذا الصدد «أن المفوضين الحكوميين قد استخدموا القوة، والرشوة، والخداع، والتهديدات - ضمن أشياء أخرى - لإقناع القادة الهنود بالتوقيع على معاهدات يتخلون بموجبها

عن الأرض». وهذه التكتيكات تدل على الحقيقة العامة القائلة بأن المستوطنين البيض لم يستطيعوا أن يأملوا بانتزاع الأرض من سكانها الأصليين إلا باستخدام القوة. ويُقر روزفلت - بكلمات سيرد القادة الصهاينة في فلسطين صداها بعد عقد من الزمن - بأن الحروب:

كانت محتومة في الظروف الفعلية للمستوطنات. فإن قررنا أنه كان على أرض الهنود أن تؤخذ، وأن على الرجال البيض أن يستوطنوا القارة، فإن من الواجب الإقرار أيضاً بأن المستوطنات لم تكن ستقام إلا بعد الحرب... لم يكن ممكناً امتلاك البلاد في أية ظروف متشابهة إلا نتيجة لحرب، أو سلم يُحرز مخافة وقوع حرب.

وبناءً على ذلك، أكد روزفلت أن التمييز بين التخلي عن الأراضي بواسطة المعاهدات، والتخلي عنها بواسطة الحرب، كان تمييزاً مصطنعاً. ففي الحالين كليهما، على نحو ما يُقر مؤرخ الغرب الأمريكي (بعكس المؤرخين الصهاينة)، كان الأمر فعل غزو واحتلال:

عند النظر إلى الأمور من زاوية النتائج النهائية، لم يكن ثمة إلا فرق ضئيل بالنسبة إلى الهنود بين أن تؤخذ أرضهم بالمعاهدة أو بالحرب... لم تكن هناك معاهدة تُرضي البيض، ولم تكن هناك معاهدة تُخدم حاجات الإنسانية والحضارة، إن هي لم تُعط الأرض للأميركيين بالاحتفاظ عَيْنه الذي تعطيهم إيها أي حرب ناجحة يخوضونها. بل الحق أن الأراضي التي انتزعت من الهنود قد كُسيبت بالمعاهدات بمقدار ما كُسيبت بالحرب. ولكن الحرب قد كانت دائماً تقريباً هي التي تضمن نجاح المعاهدة [من وجهة نظر الحكومة]. وإن لم يكن ذلك بالحرب، فبالتهديد وبإمكانية الحرب.

كما شجبت مقاومة التشيروكيين لتوسع المستوطنين بوصفها «وحشية» Savegery؛ وهي النسخة السابقة لما

يُسمى اليوم بـ «الإرهاب». ويلاحظ ريجينالد هورسمان أنه «في الوقت الذي كان فيه الهنود يقاتلون بيأس للمحافظة على الأراضي التي عاشوا فيها من تعديت البيض، كانت أعمالهم الوحشية تُستخدم لإدانتهم... لقد استخدم العنف الذي ولده تقدم [اجتياح] البيض لإدانة الهنود الذين كانوا قد استُفروا للمقاومة». وإذا استنكرت هيلين هانت جاكسون استخدام تعبير: «فظاعات الهنود» Indian atrocities في الوثائق الرسمية لنعير المقاومة التشيروكية، قالت: «إن قلة قليلة ممن قرأوا هذه السجلات يخطر لهم أن الهنود الذين ارتكبوا هذه

الفظاعات كانوا ببساطة يطردون [أعداءهم] بالقوة، وأنهم كانوا - في النزاعات الناشئة عن هذا الطرد القسري - يقتلون الرجال الذين اغتصبوا وسرقوا أراضيهم. تُرى كيف كانت ستتصرف جماعة من الرجال البيض، لو وضعت بالضبط في الموضع الذي كان فيه التشيروكيون؟» بل، استكمالاً لهذا الخلط المألوف من المصطلحات، استُحسن اعتداءات المستوطنين التي رافقت انتهاكات الحدود بوصفها «رجولية وبطولية»؛ كما أن المستوطنين استخدموا «لغة الدفاع عن النفس» - التي صاغها مايكل پول روجن Rogin - «لكي يجربوا نواياهم العدوانية».

عشيّة «حرب الاستقلال»، حين كان المستوطنون يواصلون توسعهم بسرعة، تحالفت الأمة التشيروكية مع البريطانيين. وهنا يُقر روزفلت بصراحة بأنه «من السهل، وبالنظر إلى الوراء، أن نرى أن الهنود قد كانوا الأعداء الطبيعيين للشعب الأميركي، والحلفاء الطبيعيين - بالتالي -

لا معاهدة

ترضي البيض

إن لم تعطهم الأرض

التي تعطيهم إيها

أي حرب ناجحة

يخوضونها

إلى القادة العسكريين بأن: «قوموا بأعمال تمليس [أو تنعيم] أثناء تقدمكم - أي اقطعوا كل حقل ذرة هندي، وأحرقوا كل بلدة هندية!» وإذ يتذكر ضابط أمر هجوماً مفاجئاً فجرياً على قرية تشيروكية عام ١٧٨٢، يتبجح بأن القرويين فيما كانوا يحاولون الفرار:

انطلق الجنودُ عموماً في فصائل، وطاردوا الهنود، وهم يقطعونهم بسيوفهم. ولئن أخطأت ضربة هدفها، تكفلت الضربة الثانية أو الثالثة من جنود آخرين بإنجاز العمل. وكان لأحدهم، واسمهُ ويليام غرين، وهو رجلٌ شديد الضخامة والقوة، سيفٌ ضخماً يُقلع به رؤوس الهنود الهاربين وكأنتها حبات قُرْع كثيرة فحسب. وأما الشاب زاك كلارك، الذي لا يزيد عمره عن سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً... فقد تميز بمطاردة الأعداء وقتلهم.

هذا الشاب القاتل الممتاز، زاك كلارك، أصبح لاحقاً حاكماً لجورجيا! كما كتب أحد الضباط إلى جون هانكوك، قرّوى كيف تجمعت زمرٌ من المستوطنين ليذبحوا هنوداً حُلفاء في الأراضي التي كان هؤلاء يسطادون فيها، وكيف أنه «لم يكن من غير الشائع أن تسمع أولئك الذين ينبغي أن يكونوا أكثر درايةً وهم يعبرون بأنفسهم عن رغبةٍ مضطربة في إضرام حربٍ مع الهنود، بسبب الأراضي الرائعة التي يملكها هؤلاء المساكين».

لقد ادعى المستعمرون الأميركيون، إذ راحوا يصورون أنفسهم ضحايا أبرياء مستميتين في تحقيق السلام، أن حربهم ضد التشيروكيين إنما جاءت دفاعاً عن النفس. (وعلى هذا، كانت إسرائيل عام ١٩٤٨ وبعدها تستند [في تأويلها لتاريخ فلسطين الحديث] إلى نص قديم!). وتطلع القائد التشيروكي كورن تاسيل Tassel بحقدٍ وعداوةٍ إلى ادعاءات الأميركيين بالبراءة، أثناء تفاوضه مع مستوطني كارولينا عام ١٧٧٧، قائلاً: «انتم تريدون أرضنا فقط، لا صنع السلام». والحق أن الأميركيين ضغطوا لكي يتخلى التشيروكيون عن أراضٍ احتلّت أثناء حرب الثورة. ولم تستطع الأمة التشيروكية أن تستوعب لماذا يُعطي فرارُ السكان الأصليين، من لظي المعركة، الأميركيين حقاً شرعياً بالأرض: «أنا [تاسيل] لا أستطيع أن أفهم كيف لهم أن يطالبوا بالأرض لهذا السبب؛ فنحن أيضاً طردنا سكاناً بيضاً من بيوتهم». غير أن قوة المنطق أثبتت أنها لا تكافئ منطق القوة. يلاحظ روزفلت،

للحكومة البريطانية، وحين فزع التشيروكيون من تعديّات البيض، امتشقوا الفؤوس [المعروفة بـ «التمهوك»] تحت إمرة البريطانيين». وقال أحد المحاربين التشيروكيين نادياً، وهو يستعدّ للانضمام إلى صفوف الملك جورج، إن ناسه لم يكونوا يمتلكون إلا رقعة صغيرة من الأرض تُركت لهم ليقفوا عليها، وإنه يبدو أن الشعب الأبيض ينوي تدميرهم كي لا يكونوا [أو يظلوا] شعباً.

لقد كانت حربُ الاستقلال الأميركية، مثل «حرب الاستقلال» الإسرائيلية، حربَ غزوٍ لا ترحم. واحتوت «خصيصةً ثنائية»، على حدّ تعبير روزفلت، لأن الأميركيين من جهة «ربحوا بالغزو والاستعمار أراضي جديدة لأبنائهم» (وهي «وادي أوهايو كاملاً، بالإضافة إلى وادي إلينوي»)،

ولأنهم «من جهة ثانية وطّدوا استقلالهم الوطني عن الملك البريطاني». وراح المستوطنون الأميركيون يشنون حرباً «بلا هوادة» ضد التشيروكيين، مستخدمين اندلاع العداوات ذريعةً. وكتب ثورمان ويلكنز: «لم يعتبر الرجال البيض أي فعلٍ محليٍّ أكثر بربريةً من أن يتبنّوه، بل إنهم طوّروا تحسيناتٍ من صنعهم هم». وبحسب موني (Mooney)، فإن السلطات الثورية - بنشرها للإعلانات [الداعية إلى المساعدة على القبض على «المتمردين» لقاء مالٍ أو نحوه] - قد «شجعت بصورة رسمية العادة البربرية المتمثلة بسلخ جلد الرأس (scalping)». ويضيف موني، بما

يشكل مغزى عميقاً، أن ليس ثمّة ذكراً في السجلات لأيّ حادثةٍ سلخ جلد رأسٍ قام بها الأميركيون بحق محافظين بريطانيين (Torries) أو بيض آخرين، رغم كل المرارة التي أثارتها الحرب. (إن ازدواج المعايير العنصري ذاته أمرٌ ثابت على مدار التاريخ الأميركي. ويلاحظ جون دوير Dower، حين النظر إلى الفظائع التي اقترفتها الولايات المتحدة في حربها مع اليابان، «أن من الأمور التي لا يتصورها العقل في الواقع أن تُجمّع أسنان قتلى الحرب الألمان أو الطليان وأذائهم وجماجمهم، وأن تُعرض في البلاد الأنجلو-أميركية، دون أن يثير ذلك صخباً وضجيجاً»). وقد استغل قائد كارولينا الويغي*، ويليام هنري درايتون، «أعمال العداة المتجددة التي قام بها بضعة شبّان» عام ١٧٧٦، لكي يُصدر تعليماتٍ بالإبادة الجماعية للتشيروكيين. وأعطيت الأوامرُ

قال بن غوريون: «لا يهم ما يقوله الأفيار، بل ما يفعله اليهود».
وقالت ماير: «إن حدود إسرائيل هي حيث يعيش اليهود»

* - الويغي، أو الهويغي whig: أمريكي مؤيدٌ للاستقلال عن بريطانيا أثناء الثورة الأميركية. أو هو عضوٌ في حزب أمريكي أنشئ عام ١٨٣٤ لمقاومة الحزب الديموقراطي. (الترجم)

متذكراً المفاوضات مع بريطانيا، وهي المفاوضات التي أنهت حرب الاستقلال:

لقد كان احتلالنا الفعلي للبلاد، وتمسكنا بها، مما الأمرين اللذين أعطيا دبلوماسييننا موقع الأفضلية [في المفاوضات]. إن سلام ١٧٨٣، بقدر ما أثر على حدودنا الغربية، لا يعدو أن كفل لنا ملكية للأراضي لا يقض مضعها أحد؛ وهي أرض ثبت من المستحيل طردنا منها... لقد حصلنا على ما حصلنا عليه لاننا كسبناه ولأننا تمسكنا به فقط.

إن استراتيجية روزفلت، التي كان للصهاينة فيما بعد أن يدعوا «بناء حقائق» building facts، لم يُعرقها الإغراق النيق في التمحيص بالأمور القانونية. يقول روزفلت: «ليس

هناك، على الإطلاق، معاهدات يُمكن اعتبارها ملزمة إلى الأبد؛... فقد تنشأ ظروف تجعل من المفيد، بل من الحتمي والمشرّف، أن نُطيلها». وتلخص النسخة الصهيونية من هذه المشاعر في تحذير بن غوريون الشهير: «لا يهم ما يقوله الأغيار [غير اليهود]، بل المهم ما يفعله اليهود؛ أو كما عبّرت غولدا مائير بقولها: «إن حدود إسرائيل هي حيث يعيش اليهود، لا حيث يوجد خط على الخارطة».

كانت المعاهدة الأولى الموقعة بين التشيروكيين والحكومة الجديدة للولايات المتحدة في هوبول HopeWell في كارولينا الجنوبية (١٧٧٥) قد أُجبرت الهنود على التخلي من جديدهم عن أرض

واسعة. ورغم أن المعاهدة بشرت بأن «البطة سوف تُدفن إلى الأبد بين الولايات المتحدة والتشيروكيين»، فإنها [في الواقع] استحدثت المستوطنين على القيام باعتداءات جديدة على مناطق التشيروكيين. وعلى الرغم من شجب وزير الحرب هنري نوكس Knox لـ «الانتهاكات المشيئة التي تعرّضت لها معاهدة هوبول»، فقد طالبت حكومة الولايات المتحدة في معاهدة هولستون التشيروكيين بتخليّات جديدة (١٧٩١): «يعلن سلام دائم بين الولايات المتحدة والأمة التشيروكية... وتضمن الولايات المتحدة بجديّة للتشيروكيين كل أراضيهم التي لم يُتخل عنها في هذا النص». ونقرأ أيضاً في معاهدة تليكو Tellico ما يلي: (١٧٩٨): «[ههنا] يُجدد السلام والصداقة، ويُعلنان دائمين... وتبقى الحدود التشيروكية على ما هي عليه، ما عدا ما حدث تغييره في هذه المعاهدة. ويتخلى التشيروكيون عن...!». وبين عامي

١٧٨٥ و ١٨٣٥ وقّعت حكومة الولايات المتحدة والأمة التشيروكية ست عشرة معاهدة كاملة مماثلة «دائمة» من «السلام والصداقة» «تضمن بجديّة الأراضي التي لم يُتخل عنها في هذا النص»[١].

وإذ استوعبت الأمة التشيروكية أعراف «الحضارة» وأشراكها بسرعة، فقد تطوّرت مع حلول عام ١٨٣٠ إلى مجتمع يُغلب عليه الطابع الزراعي ويمتلك بنية دستورية أحالتها إلى «صورة مرآوية عن الجمهورية الأميركية». وقد لاحظ مُشرف الولايات المتحدة على التجارة الهندية «أن التشيروكيين متقدّمون على كل القبائل الأخرى، ويمكن اعتبارهم شعباً متحضراً». وحين ألقى جون س. كالهون Calhoun خطاباً أمام مجلس الوزراء ذكّر أن كل

التشيروكيين «مزارعون، وأن لهم حكومة تمثيلية، ومحاكم قضائية، ومدارس راقية، وملكية دائمة». غير أن كالهون يوضح أن «تقدّم التشيروكيين في الحضارة»، بعيداً عن أن يكون نعمة، قد «كان بلاءً عظيماً»؛ ذلك لأنهم - بإعازتهم نداء «تحضير أنفسهم» أذناً صاغية - قد أصبحوا أيضاً (كما كان يُعتقد) «شديدي الارتباط بالأرض». لكن الولايات المتحدة لم تكن عازمة على استيعابهم، بل على طردهم. ومن الواضح أن الأمة التشيروكية قد تعاملت مع العقاقير الأميركية الرسمية بحرفيّة شديدة؛ وقد خطب سيناتور «رود أيلاند» - أثناء نقاش أعضاء الكونغرس بشأن ترحيل التشيروكيين - قائلاً: «يا أيها الهنود السيئو الطالع! إن البربرية ومحاولات التحضر سيان عندهم؛ فكلا الأمرين مُهلك لحقوقكم؛ ولكن محاولة التحضر هي الأكثر إهلاكاً».

لقد تصوّرت كل إدارات الولايات المتحدة (بدءاً من جيفرسون)، وتصوّر كل قادة المعارضة الرئيسيين، أن نقل التشيروكيين إلى غرب نهر الميسيسيبي هو «الوسيلة الرئيسية» (وهنا نستعيد صياغة المؤرخ الإسرائيلي) «بني موريس» للمسألة في السياق الفلسطيني) لحل المسألة التشيروكية. وطمعت الولايات الجنوبية بالمناطق الهائلة ذات التربة السطحية القيّمة، والخشب الجُر [الخام]، والاحتياطات المعدنية (وكان الذهب قد اكتُشف في نهاية العشرينات من القرن الثامن عشر) في المناطق التشيروكية. ولكن التشيروكيين تعهدوا علناً بأنهم سيقفون صامدين في

«لقد دُفينا بالشعب

المسكين الجاهل

المنحط، ولكن ليس

بيننا من يجهل أن له

حقاً في أن يعيش على

أرض آباءه»

* - «دُفُنُ البطة»: كناية عن دفن الأحقاد. (المترجم)

التشيروكيون - ويكلمات أحد المتعاطفين معهم من أعضاء الكونغرس - «تحت رحمة مُثبيري الشُّفب وخنجر كلِّ وُغْدٍ مجرِّدٍ من المبادئ في [هذا] المجتمع». وقد وَضَعَ المستوطنون البيضُ يَدَهُم على أراضي الهنود ومواشيهم وتحسيناتهم، وأجبروهم على توقيع عقود بيع، وساقوهم إلى الغابات، وحازوا منجماً من الثراء في أرض خالية. وكان المحتجون من الهنود يُهدِّدون أو يُجَلِّدون». ويقرُّ دو توكفيل أن «السكان الأصليين قد كانوا بشكل يومي ضحايا لسوء استخدام القوة». ونعى أحد المعاصرين الآخرين أن التشيروكيين «أرهبوا ورُوعوا واستؤسِد عليهم وأشعروا أنهم لا يملكون حماية كافية من الولايات المتحدة وأن لا قدرة لهم على حماية أنفسهم». وكتب جرانت فورمان Foreman في تقريره الذي يحظى بالقبول العام «أن الاضطهاد كان

يطبَّق دون رحمة من أجل تحطيم أرواح التشيروكيين الذين رفضوا مغادرة بيوتهم». بل إن ولاية جورجيا ادَّعت أن لها حقاً شرعياً مقصوراً عليها وحدها في استثمار المصادر المعدنية التي لا تقدر بثمن والموجودة في أراضي التشيروكيين - وبالتحديد: استثمار رواسب الذهب المكتشفة حديثاً. والحال أن حقوق تطوير مصادر المياه التي لا تقدر بثمن في المناطق الفلسطينية المحتلة قد مُنحت هي الأخرى - وبتحكيم للحقوق مشابه [للتحكيم السابق] - للإسرائيليين حصراً.

ويكلمات غنيّة بالترجيع المعاصر، شجبت الأمة التشيروكيّة والبيض المتعاطفون معها أيضاً حملة ترحيل التشيروكيين شجباً علنياً. وردّ التشيروكيون على الإنذار النهائي الذي وجّهه وزير الحرب جون كالهون إليهم بوجوب التخلّي عن السيادة على جورجيا أو الرّحيل بالقول: «نستأنكم بالحديث، ونذكّركم بأنّ التشيروكيين ليسوا أجانب بل سكان أصليّون من سكان الولايات المتحدة، وبأنّ الولايات التي تحيط بهم الآن قد خلقت من أرض كانت لهم [أي للتشيروكيين] في السابق». وتساعلوا في عريضة رفعوها إلى الكونغرس: «أي حق يُمكن أمة أن تمتلكه في أرض ما، أفضل من حقها [الذي حازته] في أن ترث هذه الأرض وأن تكون ملكاً لها منذ الأزمنة السحيقة؟... ما هي الجريمة التي ارتكبتها، والتي يمكن أن تحرمنا وطننا؟». كما تتساءل «مذكّرة» تشيروكيّة، بعد أن تُذكّر «بأننا لم ننتهك سلطة أحد، ولا حرّمنا أحداً امتيازاته غير القابلة للتحويل»: «كيف لنا، إذن، أن نعترف مباشرة بحق شعب آخر في

وجه أيّ تعديلاتٍ جديدة. وتعلّق «هيلين هانت جاكسون» في هذا الصدد: «لقد تقرّر مصيرُ التشيروكيين في اليوم الذي أعلنوا فيه - مرةً وإلى الأبد، وبصورة رسميةٍ بوصفهم أمةً - أنهم لن يبيعوا قديماً مربّعة أخرى من أرضهم». ثم أقرّ الكونغرس سلسلةً من الإجراءات لتسهيل عملية ترحيل التشيروكيين. وتوجت هذه التشريعات القانونية بـ «مرسوم الترحيل الهندي» (Indian Removal Act) عام ١٨٣٠، وهو مرسومٌ صيغ بلغةٍ جعلته يبدو وكأنه صادرٌ عن إرادة، ولكنه كان «مفهوماً جداً» أنه يعني أن ليس للتشيروكيين «أي خيار». وعلاوة على ذلك، كان الإبعاد شاملاً؛ فلم تكن أراضي التشيروكيين المستخدمة في الزراعة هي وحدها المدرجة على قائمة الترحيل، بل كان إلى جانبها أيضاً تلك القطع الأرضية القليلة المملوكة ملكية خاصة. وأما عروض القادة التشيروكيين الأخيرة - وكانت بمثابة خندق دفاعهم الأخير - فقد وقعت على أذان صمّاء؛ وكانت تقضي بحلّ الأمة التشيروكية وانضمام أفرادها إلى الاتحاد مواطنين فرادى وملاكاً صغاراً للأراضي، الأمر الذي يفسح المجال أمامهم لبيع أراضي ضخمة. وقد شدّد وزير الحرب جايمس باربور Barbour - معيداً إلى الأذهان أن التشيروكيين كانوا قد نُصِحوا بأن «يتصرفوا كما يتصرّف البيض» من أجل مستقبل آمن - على نفاق الجهود الجارية لترحيلهم: «إنهم يرون أن إقرارنا منافقة، وأنّ وعودنا قد نُكثت، وأنّ سعادة الهنود هي تضحية رخيصة من أجل امتلاك أراضٍ جديدة».

لقد لاحظ دو توكفيل de Tocqueville أن الولايات الجنوبية سنت - طبقاً لمبدأ «طرد التشيروكيين طرداً كاملاً» - إجراءات «مستبدهة»، وأصدرت مراسيم «اعتباطية». وكان الهدف - كما هي الحال مع حكم إسرائيل القمعيّ لفلسطينيّ الضفة الغربية وغزة - «دفعهم إلى مرحلة اليأس وإجبارهم على الرحيل». وقد أفصح ببلاغة عن الاستراتيجية الأساسية «أندرُو جاكسون»، الذي سعى إلى طرد التشيروكيين بترخيص قانوني حين قال: «عليكم أن تُزِيلوهم بواسطة التشريع. اتّخذوا على بلادهم ولاية قضائية؛ وأشعلوا الحرائق من حولهم، وافعلوا بشكلٍ غير مباشرٍ ما لا تستطيعون فعله بشكلٍ مباشرٍ».

ومع توسيع قانون جورجيا ليشمل أراضي القبائل، تُركّ

العلاقات المتواطئة بين حكومة «إسرائيل» والمستوطنين مماثلة للعلاقات بين الحكومة الأميركية وسكان الحدود البيض

* - المقصود: الاتحاد الفدرالي للولايات الأميركية أثناء الحرب الأهلية. (المترجم)

أرضنا، فنغادرها إلى الأبد؟». وتضيف المذكرة: «لقد دُعينا بالشعب المسكين والجاهل والمُحطَّ، ولكن ليس هناك رجلٌ ضمن حدودنا [الجغرافية] من الجهل بحيث لا يعرف أن له حقاً في أن يعيش على أرض آبائه».

وتعيد «مذكرة» أخرى إلى الأذهان «الإهانات، والسجن، والاضطهاد، بل والموت» التي عانى منها التشيروكيون على يد الجورجيين: «ومع هذا فإن التشيروكيين لم يرتكبوا أيُّ اعتداءٍ على الإطلاق، إلا ما جاء بدافع السعي إلى التمتع بما يملكونه، ورفض التحلّي عنه إلى من لا يملك حقاً فيه». وحثُّ أحد البيض المتعاطفين مع التشيروكيين «شعب جورجيا، وشعب الولايات المتحدة، على تأمل ما إذا كانوا هم مستعدين لتلقّي المعاملة التي يُهددُ بها الشعبُ التشيروكي، وما إذا

كانوا سيرضون بالنفي [إلى خارج بلادهم]؟». أو كما عبّر عن ذلك التشيروكيون - وبصورة متكفّة - في مذكرتهم الثانية حين قالوا: «إننا نتضرّع إلى أولئك الذين وجّهنا إليهم المقاطع السابقة، بأن يتذكروا قانون الحياة العظيم: أن اعملوا للآخرين ما تحبون أن يعملوه هم لكم». وقد تنبّه المراقبون غير الأميركيين بصورة خاصة إلى «ورع» الحضارة الأميركية المنافق؛ فهي تُطري [بإسراف] أصولها الديمقراطية فيما هي تدوس بقسوة على رقاب السكان الأصليين. ويقول الرحالة الإنجليزي فرانسيس ترولوپ، مشيراً إلى «سياسة»

ترحيل الهنود «الغادرة» بوصفها سياسة تُكشّف عن الطبيعة الحقيقية لاميركا: «إنك لتراهم ساعة يحاضرون أمام جماهيرهم عن حقوق الإنسان غير القابلة للإلغاء، ثم تراهم في ساعة تالية يسوقون أبناء الأرض خارج بيوتهم!»

لقد بلغت عملية ترحيل التشيروكيين أوجها أثناء إدارة أندرو جاكسون*. ولقّع جاكسون فعل الغزو بضباب كثيف - وإن يكن ضباباً مألوفاً - من الإيديولوجيا التي تبرئ الذات. فقد زعم أن من «الحقائق الثابتة البادية الآن» أن التشيروكيين «لا يمكنهم أن يعيشوا على تماسٍ مع مجتمع متحضّر وأن يزدهروا». وإلى أن يتمكن التشيروكيون من إتقان فنون الحضارة، فإن «واجب» حكومة الولايات المتحدة «الأخلاقي» هو أن تُنجز عملية ترحيلهم؛ وهذه هي الوسيلة الوحيدة «لحماية [التشيروكيين]... وصونهم وحفظهم من الزوال». ولكن المجتمع التشيروكي كان قد امتدح قبل ذلك

بسنوات قليلة فحسب بوصفه «صورة مرآوية عن الجمهورية الأميركية!» والحق أن التشيروكيين إنما «دُعوا إلى الرحيل»، على نحو ما يلاحظ عالم إنجليزي زائر، «لا لعجزهم عن التحضّر، بل لأن مجموعة زائفة من الكائنات المتحضرة - التي كانت أقوى منهم كثيراً - تريد الحصول على أملاكهم».

وأكد جاكسون، في نقاش متّصل بهذا الموضوع، أن الحكومة القومية كانت عاجزة عن صدّ تعديّات المستوطنين، وأن ترحيل التشيروكيين كان ضرورياً اتّقاءً لأيّ عنفٍ حدودي. ولكن لن نشأت نزاعات حقاً في السنوات الأولى من عمر الجمهورية بين الحكومة القومية والمستوطنين، فإن التوترات - حتى في ذلك الحين - كانت في الغالب ظاهريّة أكثر ممّا هي حقيقية، إذ كانت شجاراً على الوسائل لا

على النتائج. وهكذا لم يكن لدى الموظّفين الفدراليين، وفقاً لما قاله برنارد شيهان Sheehan، «أيُّ وخزٍ ضميرٍ حيال السيطرة على أراضي الهنود في نهاية المطاف، ولكنهم لم يفقهوا كيف يكون بمقدور احتلال نظامي للقارة أن يتقدّم إن هو أسلمّ زمام السياسة القومية لمبادرات سكان الحدود». وفي النهاية كان بإمكان المستوطنين الاعتماد الدائم على دعم الحكومة؛ ومع أن روزفلت كان ناقداً قاسياً لسلبية الحكومة الفدرالية [إزاء المستوطنين]، فقد أقر:

بأن الأمة قد يعوزها حماس أول الأمر، وربما أمّلت في أن تمنع المستوطنين من التعدي على أراضي الهنود أو من الدخول في حربٍ معهم. ولكن حين كانت الحربُ تصبح أمراً واقعاً، والنصرُ مشكوكاً في إحرازه، كانت القوة الحكومية تُستخدم بالتأكيد لتأييد المازومين [المستوطنين]... طليعة الشعب الأميركي في القفار.

وكانت الأعداء التي تقدّمها الحكومة الفدرالية إلى ضحايا انتهاكات المستوطنين غير ذات معنى. حتى تساءل التشيروكيون: «هل الكونغرس الذي انتصر على ملك بريطانيا العظمى عاجزاً عن ترحيل أولئك المستوطنين؟ وعلى أيّ حال، فما إن شغل جاكسون منصبه حتى عملت الحكومة الفيدرالية مع سكان الحدود يد بيد. وأورد روجن Rogin أن «إلحاح جاكسون على الطبيعة العفوية والشعبية لتوسّع البيض» يهدف إلى «حجب الدور الرئيسي الذي أدّته قرارات السياسة الحكومية». لقد كان جاكسون، عملياً، يستخدم المعتدين المنتهكين... من أجل إجبار القبائل [التشيروكية]

من مصادر القرابة بين مستوطني الحدود الأميركيين والمستوطنين اليهود تَنَشُّتُهُمْ عَلَى عَقِيدَةِ تُعْلِي مِنْ شَأْنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ

* - وهو الرئيس السابع للولايات المتحدة، وحكّم بين ١٨٢٩ و ١٨٣٧. (المترجم)

على التخلّي عن أراضيهم». واستنتج دو توكفيل أنّ الحكومة القومية، وإنْ أظهرت «عنفاً وطمعاً أقلّ» من عنف سكّان الحدود وطمعهم، إلاّ أنّها كانت «تُعادِلهم في الافتقار إلى النية الحسنة». لقد تباين أسلوبا الطرفين التكتيكيان، لكنّهما كانا «وسيلة للنتيجة ذاتها». وبمقدور المرء أن يتبيّن نموذجاً مماثلاً لهذا في العلاقات بين حكومة إسرائيل (سواء أكانت ليكودية أم عمّالية) والمستوطنين اليهود في المناطق المحتلة [بعد عام ١٩٦٧]، وهي علاقات تواطؤ في نهاية المطاف (رغم تظاهر الطرفين بغير ذلك) وإنْ شابها في فترات متقطعة بعضُ التعارض.

ولكنْ لنن عملت «طليعة القفار» [أي سكّان الحدود المستوطنون] و«القوة» [الحكومية] القومية» للهدف ذاته، وهو طرد التشيروكيين، فإنهما لم تُصدرا دائماً عن الدوافع ذاتها. ذلك لأنّ «طليعة القفار» كثيراً ما تكتشفوا عن عقلية مرّضية، لكونهم هم الذين تحملوا العبء الأعظم الناتج عن مقاومة السكّان الأصليين للتوسيع الاستيطاني المتواصل للحدود. وقد أثار الصمود العنيد للجانب الأوّل نوبات حقيقيّة من الاشمئزاز والكراهية لدى الجانب الآخر. ولاحظ «باندهاش» من سيصبح في المستقبل حاكماً للمنطقة الشمالية الغربية، أنّ المستوطنين «كانوا مدفوعين بأكثر أنواع القسوة وحشية».

ويرتكبون باستهتار جرائم هي عارٌ على الإنسانية. وعُبر ويليام هنري هاريسون - وهو ليس بغريبٍ عن الحرب والعنف - عن يأسه لكون كثيرٍ من سكّان الحدود «يضعون قتل الهنود في أعلى مراتب التشريف والتقدير». وذكر مراقبٌ إنكليزيّ أنّ المستوطنين يكوّن «أشدّ أنواع الكراهية حقداً على عرق الهنود بكامله، وليس أشيع من أن تسمعهم يتحدثون عن [ضرورة] استئصالهم من وجه الأرض، رجالاً ونساءً وأطفالاً». ورغم أن روزفلت لم يألُ جهداً في تخفيف الأحقاد البربرية التي استحدثت المستوطنين وفي تخفيف الأعمال البربرية التي ارتكبوها، فقد أقرّ بأنّ هؤلاء «يعتبرون أعداءهم وحوشاً لا بشراً»، وأنهم «انحدروا بسرعة إلى ما يقارب الدرك الذي بلغه أعداؤهم البرابرة من حيث وحشيّتهم الفظيعة»، وأنهم «بشقّ النفس اعتبروا الهنديّ كائناً بشريّاً» و«وصل بهم الأمر إلى أن يعتبروا حتى أكثر الهنود مسالمةً وحوشاً بريئة نائمةً وحسب»، و«نظروا إلى جميع الهنود بعداءٍ مقيت، ولم يكن من الممكن إقناعهم بأن

يُميّزوا الأخيار من الأشرار»، و«احتقروا جميع الرجال الذين ليسوا من لونها»، وهلمّجراً. كذلك الأمر، فإنّ مذبحه الخليل في شباط (فبراير) ١٩٩٤ - وفيها أطلق مستوطنٌ يهوديّ النار على عشرات الفلسطينيين المسلّين في أحد المساجد - وما رافق ذلك من «ابتهاج واحتفال» في المستوطنات اليهودية، يشهدان على أنّ الكراهية العرقية تستحثّ الغزو ويستحثّها الغزو. وحين ضغط أحد الصحفيين على الحاخام موشيه ليفنغر Levinger، «أبي الحركة الاستيطانية»، كي يعبّر عن أسفه على جريمة المسجد، أجاب ليفنغر «بجدية تامّة»: «أنا أسفُّ على كلّ شيء يُقتل. أنا لستُ أسفُّ على العرب القتلى وحدهم، بل أنا أسفُّ أيضاً على الذباب المقتول»[!].

بإمكاننا أن نحدّد القِرابة الإيديولوجية بين مستوطني الضفة الغربية ومستوطني الغرب الأميركي بقوة أكبر. فقد كتب روزفلت، متذكراً المعين اللاهوتيّ (الذي لا ينضب)، ومنه نبعت رؤية مستوطني الحدود إلى العالم، ما يلي:

لقد كان عددٌ كبيرٌ من أفضل رجال الغابات [أي مستوطني الحدود الأميركية] من قارئ الكتاب المقدّس [الإنجيل]، ولكنهم كانوا قد نُشئتوا على عقيدة تُعطي من شان العهد القديم [التوراة] ولا تركّز إلا قليلاً على الرأفة أو الحقيقة أو الرحمة. ولهذا نظروا إلى أعدائهم كما نَظَر الأنبياء العبرانيون إلى أعداء إسرائيل. فما تراها كانت الأمور البغيضة التي تُمرّ الكنعانيون بسببها أمام يوشع، إنْ هي قورنت بالأمور البغيضة التي اقتربها المتوحّشون [الهنود] الحُمُر الذين على المستوطنين - بوصفهم شعباً مختاراً آخر - أن يرثوا أرضهم [أي أرض الهنود] بدورهم؟ لقد آمنوا [أي المستوطنون] بأنّ الرب هو الملك إلى ابد الأبد، وأمنوا بأنهم كانوا لا يُعدّون أن يطيعوا أوامر الرب حين كانوا يبذلون قصارى جهدهم لإحداث اليوم الذي يقنى فيه الكفّار من الأرض... وكان هناك كثيرٌ من المتحمّسين الصارمين الكالحين الذين اعتبروا كلّ الرجال الحمر، سواء أكانوا أخيّاراً أم أشراراً، ذرةً أئبعت رؤسها فحان قطافها.

ولعلّه من المفيد، لعقّد المقارنة أيضاً، القول إنّ المستوطنات الحدودية، بحسب روزفلت، قد مالت إلى أن تجذب أفسد أصناف البشر: «وهم تلك الطبقة التي تلقّاها يوماً معلقةً عند أطراف الحضارة»، «رجال ذوو روح متوحشة لا تعرف القانون، من الذين تجدهم في كل مجتمع، ويندفعون كالقطعان إلى حيث يكون حكم القانون رخواً

إذا كانت «الوطنية»

هي الملجأ الأخير

للأندال، فإنّ «الأمن

القومي» هو الملجأ

الأخير للدول النذلة

مُهْلَهِلًا... لكي يتبَعوا جنوحَ أهوائهم دونَ رقيبٍ: «إنهم مجرمون عتاةٌ غالباً ما كانوا مجرد وحوش كاسرة». والواقع أنُ موظفي الولايات المتحدة الرسميين قد عدواً مستوطنين الحدود بشكل عام «نوعيةً أدنى من الناس»، وهو شعورٌ يرجعُ صِداً كثيراً من الإسرائيليين حين ينظرون إلى المستوطنين اليهود.

ولقد استنَحَضِر جاكسون خليطاً من خرافات الغزو التقليدية - إلى جانب [خرافتي] تخلف التشيروكيين وعجز الحكومة الفدرالية [عن صدِّ المستوطنين] - من أجل تبرير طرد التشيروكيين، وقال إنَّ هؤلاء لا يمكن «السماحُ لهم بالبقاء في أراضٍ واسعةٍ من بلاد لم يسكنوها فلم يُسْتَوْأ

فيها، لجرّد أنَّهم أشرفوا عليها من الجبال أو عَبَرُوا بها أثناء الصيد!» وبالتعبيرات الصهيونية، فبقدر ما كان السكَّانُ العربُ الأصليون «بدائيين» رُحُلًا، فإنَّهم لا يَمْلِكُون أيَّ حقٍّ شرعيٍّ في الأرض. وتوقَّع جاكسون أن يُخَلَّفَ ترحيلُ التشيروكيين جمهوراً كثيفاً ومتحضراً في مناطق واسعةٍ من البلاد يَحْتَلُّهَا الآن بضِعُّ صيادين متوحشين؛ وفي المجاز الصهيوني سيسمح هذا الترحيل «للصحراء بأن تُزهر». إنَّ التشيروكيين، كـ «الإرهابيين العرب» في الأيديولوجيا الصهيونية، قد ضيَعُوا فعلياً حقوقَهم السياسيَّة بسبب ذنبهم المتمثَّل في «قتل

النساء والأطفال»: «إنهم عاجزون» - بحسب تأكيد جاكسون - «عن حكم أنفسهم بأنفسهم وفقاً لأيِّ قانونٍ من قوانين الحق التي تُلقِّنها الحضارة». ويجاهر جاكسون بأنَّ الترحيل (removal)، «بضمائنه حقَّ التشيروكيين في العيش بحسب قوانينهم الخاصة»، سوف يحافظ على السلامة الثقافيَّة للأمة التشيروكيَّة. كذلك تزعم الصهيونية أن «ترحيل السكَّان العرب» (transfer) يركِّز تنمية حياة الجماعة القوميَّة [المرحَّلَة]، فلا يكون «مختلاً من الناحية الأخلاقيَّة»، بل يحقق «رؤيةً إنسانيَّةً نبيلةً». ويزعم جاكسون أنَّ الترحيل لا يتعارض مع مصالح التشيروكيين العاديين، بل مع مصالح قادة القبائل الفاسدين وحدهم، الذين خَدَعُوا «الجماهير» وأرعبوها: «لو تُرِكَ الهنودُ - وأعني الهنودَ الحقيقيين، أبناء الغابات - ليقرَّروا بأنفسهم، لأخذوا أحراراً بهذا القرار» - قرار الرُّحِيل [!]. وعلى المقلب الآخر، لم يكن رأسُ الحربة في معارضة الاستيطان اليهودي، بحسب الخطاب الصهيوني الرسمي، «فلاحو الأرض» أو «جماهير العمال العرب» (الذين

هم، وفقاً للزَّعم الصهيوني، «حلفاء طبيعيين»)، بل «الأفنديَّة العربُ الماكرون». وفي النهاية، بقدر ما كان طردُ التشيروكيين «داعماً للحدود الجنوبيَّة الغربيَّة وللولايات المجاورة بما يكفي لصدِّ الاجتياحات في المستقبل»، كان حيويّاً أيضاً له الأمن القومي «الأميريكي على نحو ما يصرُّ جاكسون... تماماً كما كان طردُ الفلسطينيين أمراً حيويّاً له الأمن القومي الإسرائيلي». وهكذا فإذا كانت «الوطنيةُ هي الملجأ الأخير للاندال» - بحسب عبارة صامويل جونسون الذكيَّة الساخرة التي تَعَلَّقُ بالذاكرة - فإنَّ «الأمن» هو الملجأ الأخير للدول النُدَّة.

لقد آتتْ حملةُ جاكسون، الحسنَةُ التخطيط، من التهويل والهجوم أكلها في النهاية. فانكسرتْ شوكةُ المقاومة التشيروكيَّة. بل إنَّ ما تبع ذلك استنَبَقَ الطريق إلى أوْسُلُو حتى في أدقِّ التفاصيل. ذلك أنَّ عصبَةَ رئيسية من قيادة التشيروكيين (ولم يكن جون روس، زعيمُ القبيلة، بينهم) استسلمتْ لجاكسون. وعلى الرغم من أنَّ «أنصار المعاهدة» ادَّعوا أنه لم يكن ثمة بديل لها (قائلين «إنَّ ضرورةً حديديَّة لا تتنهي تدلُّنا على وجوب المغادرة... وأنَّ ليس هناك إلاَّ طريقٌ واحدٌ للأمان، طريقٌ واحدٌ لبقائنا في المستقبل أمةً [واحدة]»، فإنَّه يبدو أنَّهم كانوا يعملون بدافع من طموحاتهم الشخصيَّة. وعلى أية حال فقد تفرَّد ترحيلُ التشيروكيين نهائياً عام ١٨٣٥ حين وقَّع «أنصارُ المعاهدة» اتفافيةً «نيو ايكوتا» (New Echota) التي تعهدتْ من جديد بأنَّ «الأرض المكفولة هُنَا للتشيروكيين لن تُخضع للأحكام القضائيَّة الخاصَّة بأيِّ ولايةٍ أو منطقة» وأنَّ «السلام الدائم سوف يُكرَّسُ بين الولايات المتحدة والتشيروكيين». والحقُّ أنَّ قلةً من التشيروكيين صادقتْ على الاتفافية، دُع عنك أنَّ قلةً منهم دَعَمَتَهَا. وكتب الضابطُ العسكريُّ الأميركيُّ المكلفُ بتطبيق إجراءات الطرد، إلى وزير الحرب محتجاً:

إنَّ تلك الورقة... المسماة «معاهدة» ليست بمعاهدةٍ على الإطلاق، لأنَّ غالبية التشيروكيين لم يُصادقوا عليها، ولأنَّها عُقدتْ دون مشاركتهم ورضاهم... وأنا الآن أُحذِّركُ وأحذِّرُ الرئيس من أنه إذا تمَّت المصادقة على هذه الورقة... المسماة «معاهدة»... فإنكما ستجلبان المشاكل للحكومة وستدمران الأمة التشيروكيَّة في نهاية المطاف. إنَّ التشيروكيين شعبٌ مسالمٌ غيرٌ مؤذٍ، لكنكما قد تدفعانهم إلى اليأس، وإن يكون بالإمكان تنفيذُ هذه المعاهدة إلاَّ بالقوة.

وَقَّعتْ حفنةٌ من قيادة الأمة على الاتفافية مع المستوطنين، فاندلع صراعٌ دمويٌّ يقرب من الحرب الأهليَّة الداخليَّة

لقد كانت السمات المرهفة للديموقراطية بالنسبة إلى حكومة الولايات المتحدة (وإلى المتعاونين معها من التشيروكيين) أمراً غير ذي بال*. ورأى حاكم جورجيا أن «تسعة عشر تشيروكياً من أصل عشرين هم من الجهل والانحطاط بحيث يجب الأيعار رأيهم أي وزن أو اعتبار في أمور كهذه». وعلى اثر اتفاقية «نيو ايكوتا»، شرع التشيروكيون في حملة مقاومة لاعنفية، ولكن «أنصار المعاهدة» واصلوا التغني بالاتفاقية المذكورة، وتواطوا مع حكومة الولايات المتحدة على سحق المعارضة التشيروكية. واندلع صراع دموي شمل «جرائم قتل، واغتيالات، وأعمالاً أخرى خارجة عن القانون، أدت جميعها إلى ما يقرب من الحرب الأهلية الداخلية».

ومع صمود التشيروكيين كلهم، باستثناء حفنة منهم، كان على جيش الولايات المتحدة أن يتدخل عام ١٩٢٨ لإنهاء المهمة. ولعلّ المساة التي تكشفّت تدريجياً - وعنوانها «درب الدموع» (Trail of Tears) - «قد تتجاوز من حيث ثقل الأسي والشجن أي فصل آخر من التاريخ الأميركي»، على نحو ما كتب مِبشّر موريفي. ويتابع هذا الأخير قائلاً: «إنه لمن المفجع أن ترى مدى تمنع هؤلاء الناس عن الرحيل؛ حتى ذوو أقسى القلوب ذابوا دمعاً حين أداروا وجوههم للشمس الغاربة. وأنا متأكد أن هذه

الأرض ستكون مُحضلة بدموع أمة، إن لم تكن مُحضلة بدمائها». ويتذكر متطوع جورجيا كان قد خدم مع اتحاد الولايات** فيقول: «لقد قاتلت خلال الحرب الأهلية، وشاهدت رجالاً يُصابون بالرصاص ويتقطعون أوصالاً ويُدبّحون بالآلاف. ولكنّ ترحيل التشيروكيين هو أوحش عمل عرفته في حياتي».

وبعد قرن من الزمان، سيقول الكونت فولك برنادوت، النائب السابق لرئيس الصليب الأحمر السويدي، عن الفلسطينيين الناجين من «مسيرة اللد المميتة» - وهي أمر بالطرّد كان قد صدر عن رئيس الوزراء الإسرائيلي دايفيد بن غوريون، ونقده رئيس العمليات إسحاق رابين -: «لقد

املّعت على عدد كبير من مخيمات اللاجئين، ولكني لم أر أبداً منظراً أفزع مما رأيته عينايا هنا». لقد هلك، ربّما، أكثر من نصف التشيروكيين الخمسة عشر ألفاً الذين أكرهوا على الذهاب إلى المنفى. غير أن [عملية] «درب الدموع» من وجهة نظر وزير حرب الولايات المتحدة كانت «سياسة كريمة ومستنيرة... نُفذت بمقدرة وحصافة.. وبسرعة وإنسانية جديرة بالثناء... لقد عومل التشيروكيون بمشاعر لطيفة ومُرضية... ولم تكن [العملية] خالية من العنف، ولكن بمراعاة ملائمة تماماً لمصالحهم!» كما أن الموظف المسؤول عن الشؤون الهندية حيّا طرد التشيروكيين بوصفه «مثالاً ساطعاً على تحرر الحكومة [أو تسامحها]... لقد حافظنا على المشاعر الطيبة، وقمنا بهدوء ولطفٍ

بنقل أصدقاء إلى الضفة الغربية من الميسيسيبي». وأعلم الرئيس مارتن فان بيورن*** الكونغرس في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٨، وبـ «سعادة خالصة»، بـ «الترحيل الكامل للأمة التشيروكية»، وأردف: «لقد هاجروا دون أيّ ممانعة ظاهرة». وأما بن غوريون فإنه لم يأت بجديد في خطابه أمام مجلس الشعب عام ١٩٤٨ حين قال إن العرب - الذين كانوا قد طردوا بوحشية من فلسطين - تخلّوا عن «مدن... بسهولة كبيرة... مع أنه لم يواجههم أي خطر ناتج عن تدمير أو مذابح!»

شهد دو توكفيل كيف دمرت الولايات المتحدة التشيروكيين، فقال إنه من المستحيل تدمير أمة بقدر أعظم من الاحترام للقوانين الإنسانية!

وإذ أعاد دو توكفيل إلى الأذهان أن ترحيل التشيروكيين إنما تحقّق من وراء واجهة كاذبة من المعاهدات («وبأكبر قدر من المحبة العفيفة للشكليات القانونية»)، فقد سخر من زعم الولايات المتحدة أنها توصلت إلى أهدافها «دون انتهاك لأيّ مبدأ من المبادئ الأخلاقية العظيمة في أعين الناس؛ ذلك أن من المستحيل تدمير رجال بقدر أعظم من الاحترام للقوانين الإنسانية» [من ذاك الذي دمّرت به الولايات المتحدة التشيروكيين][!].

غير أن الأمة التشيروكية، أسوة بالعنقاء التي تنبعث من الرماد كما يذهب المثلّ السائر، انبعثت هي الأخرى من جديد بعد «درب الدموع». وستبدو المأثرة أشدّ بروزاً إن

* - يُستخدم المصطلح niceties تهكماً، وهو يقصد أن الولايات المتحدة والمتعاونين معها لا يعيرون الديموقراطية كلها - لا سماتها المرهفة فحسب - أي اهتمام. (الترجم)

** - Confederacy: الولايات الجنوبية الإحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة الأميركية عامي ١٨٦٠ و ١٨٦١. (الترجم)

*** - Van Buren هو الرئيس الثامن للولايات المتحدة، وقد حكم بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٤١. (الترجم)

نحن أخذنا بالاعتبار الأفاق المعتمدة التي واجهت التشيروكيين في ظل «الحكم الذاتي» الذي اقترحه جاكسون لهم. والحق أن اسرائيل، بوضعها مخطط «الحكم الذاتي» الفلسطيني، تبدو اليوم وكأنها سرقت صفحة من كتاب جاكسون. لقد كان الوطن التشيروكي الجديد، الواقع في ما هو اليوم شمالي شرقي أوكلاهوما، كله تقريباً «غير ملائم للزراعة.. وغير ذي قيمة على الإطلاق»، وفقاً لكلمات أحد الموظفين الفيدراليين. وكان الحكم الذاتي الذي وعد به التشيروكيون مُطوّقاً من كل الجهات. وتضافرت عدة أمور «لإضعاف سيادة القبيلة»: من «وجود عملاء فيدراليين وارتباطات عسكرية»، إلى «القهر الاقتصادي» بما في ذلك «تحكّم حكومة الولايات المتحدة في كيس الأموال» [المخصّصة] للأرصدة الحيوية التشيروكية، وأسبقيّة قانون الولايات المتحدة «في كل القضايا التي تتعلق بالهنود والبيض». وساهمت «حرب أهلية دموية» في تحطيم الأمة التشيروكية، ورافقتها «إحراق مبانٍ وأملاك، واغتيالات، كانت تتم بشكل اعتيادي»؛ وقد خيضت هذه الحرب بشكل أساسي بين الفصائل التي دعمت اتفاقية «نيو إيكوتا» وتلك التي عارضتها. وبعد أن وصلت أخبار هذا النزاع الداخلي إلى الشرق [الأميركي]، صارت «الفكرة الشائعة» في الصحف - التي ادعت ذات يوم أنها متعاطفة مع التشيروكيين - أن «القبيلة الأكثر تحضراً في أميركا تردت الآن إلى البربرية». ولاحظ ويليام ج. ماكولفين أن الحرب الأهلية في صفوف التشيروكيين «تتسجم بسهولة مفرطة مع الصورة النمطة عن وحشية الهنود ولصوصيتهم اللتين يفترض أن تكونا فطريتين وغير قابلتين للاستئصال». وإذ يؤدي اتفاق أو سلو - كما كان محتتماً - إلى نزاع أهلي عنيف بين الفلسطينيين، فإن «صحف السواحل الشرقي» [من الولايات المتحدة الأميركية] ستتخذ دون شك الوضعية ذاتها من اليأس من «بربرية» العرب.

وهكذا استنتج التشيروكيون، بحسب ماكولفين، أن «أملهم الأول في أن يُدمجوا على قدم المساواة [مع مواطني الولايات المتحدة]... أمرٌ مستحيل»، بعد نصف قرن من «الجهود المتواصلة» التي بذلتها الولايات المتحدة من أجل «ترحيلهم». واستنتجوا أنه قد «كُتب عليهم أن يصيروا مواطنين من الدرجة الثانية» في أحسن الأحوال. ولم يكن أمامهم من خيار سوى «الاعتماد على قادتهم هم، ومساندة حكمهم الذاتي». ووفقاً لذلك «استخدم التشيروكيون المفهوم

الأوروبي للامة Nationhood* للدفاع عن حريتهم وعن قاعدة لهم في الأرض». ونجحت الأمة التشيروكية في البقاء على قيد الحياة، بل وفي الازدهار - وإن إلى أجل محدد - بالرغم من سيادتها الموهنة والعقبات المثبّطة المنثورة في طريقها. والحق أن هذه الأمة بحلول الخمسينات من القرن الثامن عشر كانت تزدهر كما لم تزدهر من قبل، وكانت خزائنه عرض [«فيترينة»] أمام الزوّار الأجانب لما يُمكن أن يحققه الهنود من تطوّر في «الحضارة» و«التنصّر». وامتدحت الأمة التشيروكية بوصفها «أثينا الغرب»، وكانت تتمتع بـ «مستوى عيش يُضاهي مستوى عيش جيرانهم في أركانسا وكانزاس وميزوري، إن لم يُفقه»، وبمستوى معرفة بالقراءة والكتابة «أفضل بدون شك». وبالإجمال، أظهر التشيروكيون «أنهم مجتمع متقدّم... كأفضل ما يمكن العثور عليه» في أي مكان على الحدود. ومع ذلك سُحقوا، مرة أخرى، بقوة «سياسية إمبريالية» ماحقة لم يكن ممكناً وقفاً مع حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان دو توكفيل قد تنبأ أصلاً عشية ترحيل التشيروكيين من فيرجينيا «بأن ذلك الجمهور نفسه، الذي يضغط الآن من حول التشيروكيين، سوف يجيء بلا ريب خلال سنوات قليلة في أثرهم من جديد». ولقد استُخدم دعم التشيروكيين «الغادر» المزعوم «للاتحاد الفدرالي» ذريعة من أجل انتزاع تخليّات كانت في الأصل مطمئناً (من قبل مصالح سكة الحديد، ومضاربي الأراضي، والمستوطنين العاديين) قبل الحرب الأهلية؛ وهو ما يشكّل واقعة سابقة لمصير الفلسطينيين أثناء «حرب» الخليج وبعدها. والواقع أن سياسة التعديّات، التي تجددت، كانت قد استُهلّت بواسطة الرئيس لينكولن. وأجبر التشيروكيون، بحكم شروط معاهدة «فورت سميث» عام ١٨٦٦، على تسليم عدد أكبر من الأراضي، وعلى فتح المتبقي منها أمام السكك الحديدية. وبالطبع، فقد «ضمنت» الولايات المتحدة للتشيروكيين امتلاك أراضيهم بهدوء وسلام... إلى آخر «القصة» [الكاذبة].

حددت إطلالة هذا القرن بداية النهاية للأمة التشيروكية. وتصاعدت الضغوط، بدءاً من سبعينات القرن الثامن عشر، من أجل فتح كل المناطق التشيروكية للاستيطان الأبيض. وفيما كانت شركات سكك الحديد المنتزعة للأراضي تتقدّم [في هذه المناطق]، راح فيض من المستوطنين البيض يتبعون أثرها. وعلى هذا النحو ابتداء تشظي الفضة الأخيرة من الوطن التشيروكي. وإن المرء ليقرراً ما حدث لأمة التشيروكيين، بعد إدراك طبيعة ما حدث للفلسطينيين في تاريخهم الحديث، بحس من الألفه (déjà-vu). ويكتب

* - أو الشخصية القومية، أو الاستقلال القومي. (المترجم)

ماكلوفلين أن «بعض المستوطنين البيض» استولوا على «أراض كان التشيروكيون يقولون إنها لهم، وحين احتجّ التشيروكيون طردّهم المُعتدون بالقوة، هكذا وببساطة... لقد عدّ سكّان الحدود البيض أراضى الهنود غير المأهولة مباحة لاستيطانهم هم». وأمن المستوطنون، على حد قول أحد ضباط جيش الولايات المتحدة، أن «كل الأراضي غير المأهولة التي تخصّ الهنود إنّما هي غنيمة مجانية، أو أنها يجب أن تكون كذلك».

وكما حدث في عهد جاكسون، رفضت الحكومة الفدرالية «القيام بواجبها في ترحيل» المستوطنين «إلى أن أصبح عدوّهم من الضخامة، وغداً سلوكهم ممّا لا يمكن السيطرة عليه، بحيث راحوا يقوّضون كلّ الجهود للحفاظ على النظام». وقد أمّنت مقاومة التشيروكيين للمستوطنين، بدورها، للحكومة الفدرالية ذريعةً لهدم المزيد من سيادة التشيروكيين على أرضهم. ففي المناسبات القليلة التي رُحّل فيها المستوطنون، لم يتم ذلك إلا لكي «يتمكن الكونغرس من تطوير هيكل أكثر تنظيمياً لفتح الأراضي أمام الاستيطان الأبيض». ولم تكن لدى التشيروكيين أيّ أوهام عن الخطط الجارية على قدم وساق؛ فقد قارن أحد قادتهم مصير أمّته بمصير الطروديين (قائلاً «إنّ محتويات الحصان الخشبي التي أفرغت داخل أسوار طروادة هي التي مكّنت الإغريق من الاستيلاء على المدينة القديمة»)، ثم ربط الاستيطان غير القانوني - الذي صادقت عليه فعلياً الحكومة الفدرالية - بسياسة «امتصاص وتفسيح أصبحت بديلاً، على ما يبدو، لمذهب الإبادة extermination القديم».

وأخيراً علاناء يطالب بتوزيع قسم من الممتلكات التشيروكية المشاعة على أعضاء القبيلة الأفراد، وبإباحة ما سُمّي بـ «الفائض» (الذي قدّر بثلاثين كامليّن من مجموع الأراضي) أمام الاستيطان الأبيض. وكان «الإنسانيون» و«محبّو الخير» [الدعّون] - بصورة خاصة - متصلبين إزاء إلغاء التشيروكيين للملكية القبلية وتأسيسهم ملكية فردية؛ فقد قيل إنّ «الملكية العامّة والتحضّر» لا يمكن أن «يتعايشا»، وإنّ «الأنانية» هي في «أساس التحضّر».

ومع انعطافة القرن [العشرين] أذعنّت الأمة التشيروكية لتخصيص أراضيها على الأفراد* دون أن يكون لهم فيها شركاء. وإنّ هي لإفترّة قصيرة حتى كانت أصغرُ القطع التي أعطيت للتشيروكيين تقع هي نفسها في أيدي البيض. وما إن تفكّكت أوصال أراضي التشيروكيين المشاعة، كما تلاحظ أنجي دبو Debo في سردها الكلاسيكي [المتناز]، حتى نشأت

«احتفالاتٌ معرّبةٌ من الانغماس في الاستغلال بلغت مبلغاً عصياً على التصديق». فخلال جيلٍ واحد فقط جرّد هؤلاء الهنود من كلّ ممتلكاتهم تقريباً، وأنقذوا من الموت جوعاً بفضل الأعمال الخيرية العامة وحدها، مع أنهم كانوا في السابق يملكون ويحكمون منطقة أكبر مساحةً وأعظم بالإمكانات المادية من كثير من الولايات المتحدة! وتستدعي «دبو» إلى الأذهان أنّ «يامكان المرء عند الاقتراب من مستوطنة هندية أن يتأكد من أنّه لن يجد إلا أرضاً لا قيمة لها». وبالمناسبة، فإنّ سلب الأراضي التشيروكية وتدمير الأمة التشيروكية تدميراً نهائياً امران يسرّهما - بشكلٍ حاسم - المتعاونون التشيروكيون؛ وهؤلاء - بمعونة طبقة صغيرة من المقاولين التشيروكيين - واصلوا إثراءهم في الظروف الجديدة.

وإذ جرّدت أمة التشيروكيين من قاعدتها المناطقيّة، فقد خسرت في مدى قصير آخر مظاهر سيادتها. ووسّعت حكومة الولايات المتحدة بسرعة نطاق سلطتها، على حساب الوظائف القبلية الأساسية. وحين أصبح التشيروكيون «قلّةً عدديّةً بشكلٍ ميؤوس منه» بين المستوطنين البيض، دمجوا في الجمهورية الأميركية مواطنين في ولاية أوكلاهوما الجديدة. (لم يشكّل التشيروكيون عشيةً قبولهم في ولاية أوكلاهوما عام ١٩٠٧ إلا ٥٪ فقط من مجموع السكّان). ويعلّق مؤرّخان بالقول: «إنّ أحداث التخصيص allotment ودمج [التشيروكيين في الولايات المتحدة] لهي، بأيّ مقياسٍ موضوعي، كارثة هائلة»، بالنسبة إلى التشيروكيين بالطبع. ويخلص ماكلوفلين، بعد أن يمضي بالقصة إلى وقتنا الحاضر، إلى «أنّ التشيروكيين لا قاعدة أرضية لهم اليوم... وعلى الرغم من أنهم يحظّون كقبيلة باعترافٍ شرعيّ، وينتخبون زعيمهم بأنفسهم، فإنهم يفتقرون إلى السيادة. لقد خلّف التشيروكيون سجلاً بارزاً من النضال في معركةٍ لامتكافئة، من أجل أن يبقوا شعباً سيّداً». غير أنّ المرء ليأمل - وليس لهذا الأمل من أساسٍ يبنى عليه - أن لا يُكتب على شاهد قبر الشعب الفلسطيني مثلُ كلام ماكلوفلين!

لقد تنبّأت هيلين هانت جاكسون في قرنٍ من العار، وهو دراسة لافته نُشرت في الوقت الذي كانت فيه الأمة التشيروكية تواجه آخر ميحنها المحتومة، بأنه «سوف يأتي زمنٌ في المستقبل البعيد» يظهر فيه «سجلّ الولايات المتحدة في الغدر» بالتشيروكيين «عصياً على التصديق تقريباً». والحق أنّ قلّة اليوم يرغبون في الدفاع عن سجلّ الولايات المتحدة.

ولعلّ الإسرائيليّين هم أيضاً سوف ينظرون ذات يوم إلى الماضي غير مصدّقين ما ارتكب بحق فلسطين...

* - أي توزيعها عليهم حصصاً. (الترجم)